أقصوصة

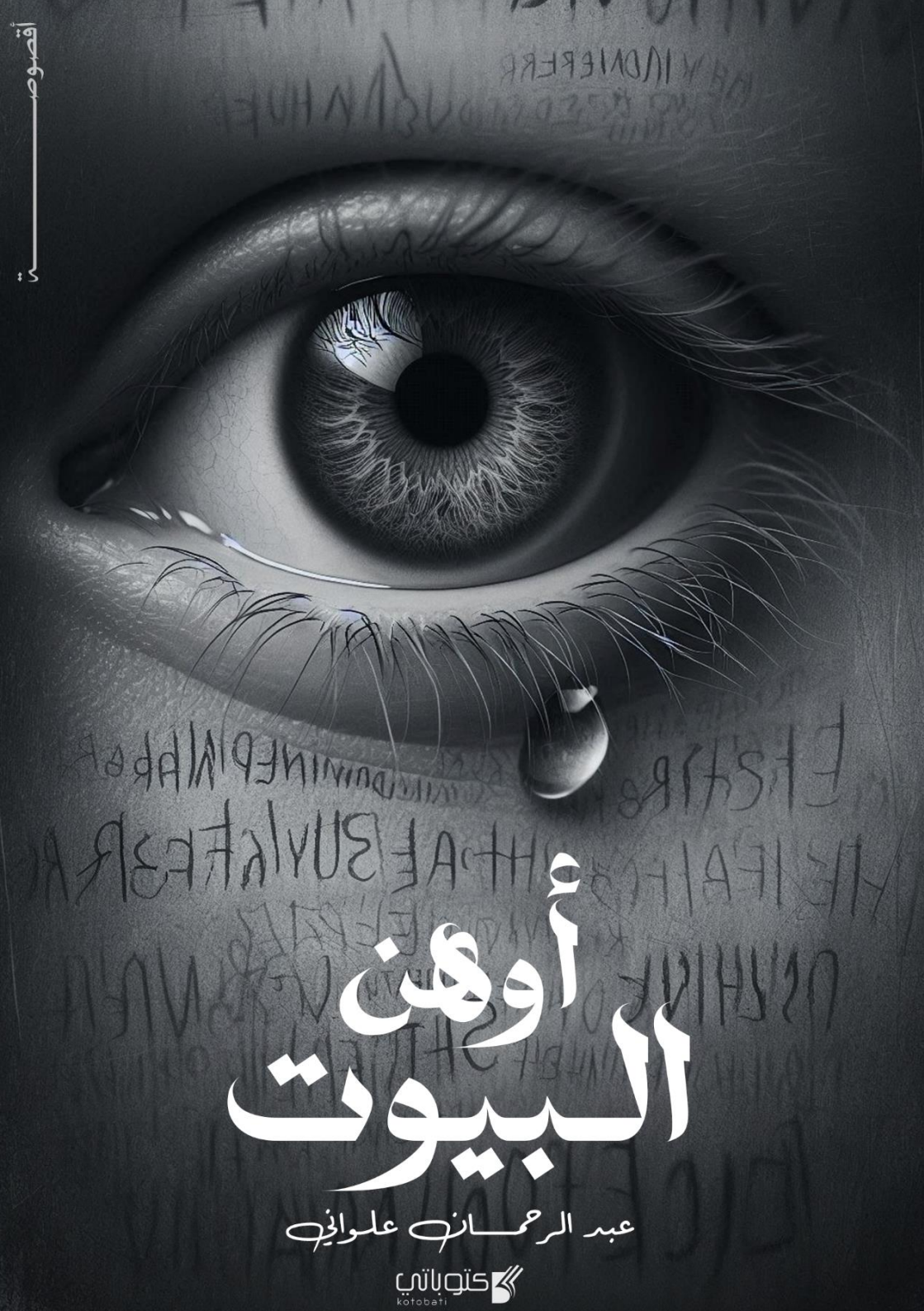

أوهن البيوت

عبد الرحمان علواني

كتوباتي
kotobati

أوهن البيوت

عبد الرحمان علواني

أقصوصة

الكتـــــــــــاب: أوهن البيوت
تـــــــــــأليف: عبد الرحمان علواني
تدقيـــــــــــق: عبد الرحمان علواني
النوعيـــــــــــة: قصة
صدر عن كتوباتي: 2024م
التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي
النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.
وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

بسم الله الرحمان الرحيم

مقدمة

قال ابن خلدون عن الإنسان أنه مدني بطبعه، و قال أرسطو عنه بأنه حيوان مدني بطبعه، ثم أتى أحمد أمين ليقول بأن ماهية الإنسان كإنسان أو حيوان مميز لا تشكل فارقا لما هو عليه، فهو لا يغير من كونه الكائن الأكثر تعقيدا و الذي لم يتم البت كمالا فيه رغم كونه أقرب الكائنات و أوفرها وجودا بالنسبة للإنسان الباحث ، بل هو الباحث و المبحوث نفسه، لكنه أتي ليقول ببطلان مدنية طبع الإنسان بل و أضفى عليه صفة العنف المطلق مستندا إلى ما بين يديه من أثار الحضارات الغابرة .

صار الإنسان مدنيا فقط لينقل عنفه إلى مرحلة أخرى من صراع فردي إلى حروب الأمم.

إن الإنسان مدنيا أو عنيفا كان فإنه يميل إلى امتلاك شعور فظيع يدعى الحب، أقصد بامتلاك الحب الحب الذي يتلقاه الإنسان دونا عن الذي يمنحه، فإن كان الثاني يمنحه شعورا بالحياة، فإن الأول هو الحياة نفسها .

إن الحب الذي يتلقاه الإنسان من من حوله يجعله يبلغ مرحلة التخمة العاطفية مما يجعله في حالة من الرضا المسكر الخفي تجعله يتغاضى عن الألم و عن ما يعترضه .

قال كمال الشناوي:« الحب جحيم يطاق و الحياة بدون حب نعيم لا يطاق »

هنا يعترف الشناوي الذي هو إنسي بلا شك، بغض النظر إن كان عنيفا أو مدنيا، بأن الحب جحيم ، و هنا يبدو أنني جعلتك تعيد النظر في تكذيبك إياي في جملتي السابقة التي قلت فيها بأن الحب شعور فظيع .

لا أعلم لم أكتب هذه الأقصوصة، و لم أكتب مقدمة كهذه، و لم أفكاري كثيرة تفتقر إلى الترابط، ربما لحقدي على الحياة، و لهذا أعرّض بالحب فهو الحياة كما سبق و أخبرتك .

على كل، جمال مقدمتي من عدمها غير مهم بتاتا إن نجحت في إقناعك بالحقد على الحياة، لأني حينها أيضا سأتمكن من إقناعك في الفقرة الآتية بانعدام ديمومة الجمال مما يجعلني أختصر الطريق و أتفادى خيبة زواله بالاعتقاد بلا وجودية الجمال .

المهم الآن بما أنك ذهبت مذهبي و انتهجت منهجي فقد صرت صديقي الحاقد، و لهذا سأخبرك أمرا، أتعلم بأنني الآن و بينما أكتب تنتابني رغبة مريعة بكسر القلم و تمزيق الورقة، أيضا أود لو أصفع نفسي ثم أذهب لأبكي و أنام، لكني لا أخفيك سرا بأني فعلت هذا سابقا، صحيح أن إحساسا مريحا تخللني، لكني عندما استيقظت عدت لأكتب من جديد، لذا فهذه المرة، سأواصل الكتابة و لأذهب براحتي إلى الجحيم، و أيضا ما ذنب الورقة و القلم أن سيدهما رجل مريض .

كما تعلم فوقت الأفكار ضيق، أود أن ينتهي وقتي سريعا لأغادر إلى مكان حيث لا أرى هذا المخلوق الأحمق الذي يشك أحيانا بأنه سليل القرود.

يحتاج الإنسان إلى تلقي العديد من تيارات المشاعر ليكون سويا و مكتفيا كالاهتمام و الإطراء و بعض الأمور ...

بالحصول على الحب فإن الإنسان يحصل على كل هذه المشاعر دون جهد، فبدل أن يحصل على العناية من أبويه، ثم يذهب للبحث عن الاهتمام من صديق، بعد ذلك يجوب الشوارع للعثور على عجوز ضريرة يساعدها على قطع الطريق، ثم تربت على كتفه بصعوبة نظرا لطوله الفارع، فينتابه إحساس بالفوقية، ثم يتلقى منها كلمات المديح، فتنتعش أوداجه، أخيرا يعود إلى المنزل و يبدأ في ذم خلقه و شكله ليتلقى تعليقات نافية مستشهدة بمواطن الجمال فيه، نعم، الجمال الذي لا وجود له.بحصول هذا الجائع على شخص يحبه، فسيتيسر له جمع مؤونته التي تبقيه سعيدا من خلال هذا الشخص الواحد .

في الجمال نقصان و خلو من الكمال كما هو كل أمر، لكن تعبيرات مجازية قيلت في كون الجمال أحيانا يبلغ الكمال، كجمال إنسية أو شئ .

إن هذه التعبيرات كانت لتكون من الصحة بمكان لو غاب الزمن عن خانة العوامل المؤثرة، لكن وجوده يدحض هذه المجازية البلهاء عن كمال الجمال .

فمن لم يولد قبيحا قبحته السنين و الزمن،

و ما لم يخلق باليا أبلته السنين و الزمن .

كما خلق الجمال زائلا خلقت الجاذبية دائمة، الزمن يمر على الأسطح فيتلفها، لكنه يعجز عن النفاد إلى الدواخل، فلا سلطان له عليها .

ما أود قوله هو أن الجمال جمال الروح،

صدقا لا أؤمن بهذا، لكن الإنسان مجبر أحيانا على تبني إيمانيات دنياوية لا يصدق بها، فقط ليتظاهر أنه لا يزال بخير .

أمر آخر أيضا، تميز الديمومة الجاذبية كونها تنبعث من الداخل، لكن دعني أخبرك أن للقبح جاذبية أيضا .

لجاذبية القبح كيمياء معينة، تتفاعل مع هذه الكيمياء بعض الكيمياء التي يملكها بعض البشر .

يحول هذا التفاعل القبح جمالا .

بئسا! إنه الحب مرة أخرى .

ابتسم صديقي الحاقد

فقد أنهيت مقدمتي

الحب جحيم يبلغك النشوة و يغيبك عن الألم، سكين يشقك بينما أنت مخدر لا تعي

و حين تنتهي سكرته، الخدر يزول، و لا يزال السكين ماض في قلبك و بدنك، لكن أين المخدر (أنا أضحك الآن و لا تسلني لم)

انتهيت هذه المرة حقا

القصة

قرية نائية عن حضارة المدن تسكنها عقول نائية عن الحضارة الجديدة، في هذا الجزء التعيس من العالم ولدت حياة.

في ليلة اختفى فيها القمر وابتعدت النجوم عن صفحة السماء، كان أحد الفلاحين يقف أمام منزله الطيني وقد وضع يديه في جيب جلبابه بينما نمت ملامحه عن التوتر. كاد يسترق النظر من الباب لكنه استغفر في سره ثم تراجع ومكث ينتظر البشير، مرت عليه اللحظات بطيئة بينما يفكر في النجل القادم.

تكة الباب وهو يفتح جعلته ينتفض من فرط حماسه، الذي خبا حالما رأى القابلة واجمة بينما تعيد بعض الخصلات المتمردة تحت خمارها، تجاوزها سريعا إلى الداخل حيث زوجته تفترش الحصير، انحنى على الرضيع برعشة وحين رآها لم يعد له من مهرب من الحقيقة، زوجته وضعت فتاة بعد انتظار دام عشرين عاما.

وضع الرضيعة بعنف، تجاهل نظرات زوجته الراجية، تجاوز ألمها، بصق على يساره بغضب ثم غادر.

عاد عشية الغد من سفرته القصيرة، ليجد سرادقا للعزاء منصوبا أمام بيته، نغزة خفيفة أصابت قلبه، لكنه ابتسم واقترب من الجمع الباكي ليستقبل تعازيهم في ابنته لكن الجثمان الذي رآه مسجى وسط المكان محا بسمته، فقد أصيب في زوجته، وقف عند رأسها واجما، شريط اللحظات التي جمعتهما مرت أمام عينيه، دمعات حزن وأسى

هددت بالنزول، وبعقل هو ذاته ذاك الذي منعه من الفرح بمولوده فقط لكونه أنثى هو أيضا منعه من البكاء وهو يذكره بأن البكاء ليس من شيم الرجال.

قطع وصلة حزنه حين دخل إلى منزله ،هناك في البهو وعلى ذات الحصير الذي ولدت عليه ابنته وتوفيت عليه زوجته كانت الرضيعة قد أهلكها الجوع فأخذت تبكي بكاء يمزق النياط، لكن والدها صم نفسه عن سماعها بينما حملها من قرني لحافها وهو ينظر لها بحقد، كيف لا وقد ولدت فتاة ولم يكفها ذلك بل قدمت حاملة الشؤم وأفقدته زوجته أيضا، ناسيا أنها لم تمنح لا حق اختيار جنسها ولا حق اختيار مصير والدتها.

حمل الفلاح العنيف رضيعته ليضعها أمام باب المنزل، قبل أن يغلقه دونها ويغيب في الداخل .

في مكان ما أمام المنزل كان أحدهم يراقب بصبر ما سيحدث، نظر بأسى حين رأى الفتاة و قد تركت وحيدة في الشارع وقد جرمت بما لا يد لها فيه.

تقدمت القابلة من الصبية التي علا صراخها، حملتها بين ذراعيها وأخذت تهدهدها بينما دموعها تتساقط بحزن وهي تشهد ما تفعله الجاهلية القديمة بالعقول النائية التي لم تبلغها أصداء الحضارة، فهي في صدأ وقدم.

***

بعد ستة سنوات:

كانت القابلة تكتب إحدى الرسائل التي يطلب منها الأهالي كتابتها لذويهم في العاصمة، كونها الوحيدة التي يمكنها القراءة والكتابة في القرية.

أثناء كتابتها للرسالة اقتربت منها الفتاة الصغيرة حياة التي حملت اسم والدتها الراحلة، حملت حياة قلما من على الطاولة وأخذت تحاول تقليد مربيتها عبر رسم خربشات طفولية مضحكة على الورق.

كان هذا يحدث بينما تراقبها القابلة زهرة بعينين آسفتين على حال الفتاة، فقد يتمت ونبذها والدها، حتى أنه لم يحاول مقابلتها طوال السنين الماضية، حتى أترابها حرمت صحبتهم، هم حمقى صغار العقول كذويهم مريدون للمظاهر التي تفتقر لها حياة، فقد ولدت دميمة ذات جبهة عريضة وأنف كبير وخدين ضامرين، وحدها عيناها من كانتا تتمتعان بجاذبية خلابة يلونهما الرمادي الجميل بينما تظللهما أهداب كثيفة.

كانت زهرة تتأمل العينين ثم تعود لتتأمل الرأس الكبيرة مقارنة بذلك الجسد الهزيل حين انتزعها من شرودها قبلة سعيدة من حياة التي نجحت وأخيرا في كتابة إحدى الكلمات الموجودة في الرسالة، وحين رأت القابلة ذلك جالت بخاطرها فكرة عزمت على تنفيذها، لقد قررت إرسال حياة لتدرس في مدرسة القرية المجاورة حيث تعمل هي أيضا هناك في المستوصف، فإن كان الجمال سلاح المرأة فإنه سلاح يضعف وتزيله السنون أما العلم فإنه يعين على نوائب الدهر من يوم حمله إلى يوم الممات.

وبعد أسبوع كانت حياة تباشر تعليمها الذي أقبلت عليه بشغف منقطع النظير، نظرا لافتقارها إلى كل الملهيات مما جعل دراستها ملجأها ومهربها من كل ما حولها من ألم.

كبرت حياة الصغيرة وتدرجت في سلم العلم متنقلة بين المؤسسات التعليمية التي توزعت على القرى المجاورة، ورغم أن هذه المؤسسات كانت حقيرة المكان لا حقيرة المقام، إلا أن حياة نجحت في الحصول على منحة الدخول إلى إحدى الجامعات بالعاصمة.

كان ذلك الفراق هو الأسهل الذي تشهده هذه القرية التي اعتادت إرسال أبنائها الأميين للكدح في العاصمة وشغل الأعمال المضنية بأجور زهيدة ينفقونها على التبغ والمطاعم الرخيصة.

لم يكن حاضرا لتوديع حياة إلا القابلة زهرة ، فحتى والدها حين ذهبت لرؤيته صفع الباب في وجهها ناعتا إياها بالقاتلة، أما أهل القرية فلم يكن لأحد منهم علاقة عاطفية من أي نوع بحياة التي كانت شهرتها الدميمة.

طوال سنين تغاضت حياة عن كونها منبوذة واكتفت بأن شغلت تفكيرها بالدراسة يشجعها دعم زهرة، لكن اليوم كان مقدرا لزهرة أن تختفي أيضا، ورغم ما نالها من القرية وأهلها إلا أن هذه القرية منحتها دفئا لم تستشعره إلا حين ركبت القطار إلى العاصمة، حينها فقط أدركت ذلك بينما وخزات الصقيع تجتاح روحها بعنف.

انتابتها رغبة عارمة في البكاء لكنها لم تستسلم لها، أرادت أن تشغل نفسها بأمر ما أثناء الرحلة ففتحت ظرفا كانت زهرة قد سلمته لها قبل أن تصعد القطار مباشرة.

وبفضل الكلمات التي حملتها ورقتا الظرف، فقد استسلمت حياة لبكاء مرير فاض ليدمر حصونا بنتها حول قلبها وعقلها لتمنع عنهما الأذى، ومع انهيار الحصون عادت لحظاتها السيئة لتظهر أمامها.

ساعات مرت بين دموع ومخاط حتى نفد منها المعين، وبجزء لم تلجمه الصدمة من عقلها عادت لتراجع شريط حياتها.

عادت إلى يومها الأول في ذاكرتها، كان عمرها حوالي أربع سنوات حين كانت تجلس بجانب زهرة تراقبها وهي ترتق غطاء صوفيا استعدادا للشتاء، حين اصطدمت كرة من الطين بالباب الحديدي الكبير، وتعالى صوت الأطفال ينادونها بالوحش، صفقت بجذل ظنا أنهم يدعونها للعب معهم فأسرعت بخطوات متعثرة من فرط حماستها حتى فتحت الباب لتصطدم بأنفها كرة طين أخرى، انتابتها رغبة بالبكاء من الألم، لكنها لم ترد أن تخسر أصدقاء لم تكتسبهم حتى ،فقرصت فخذها لتشتت الألم وتتمكن من حبس الدموع ،ثم واصلت الاقتراب منهم لتجدهم يهربون منها، صفقت بعينيها الدامعتين ثم ركضت خلف أحدهم، كانت سعيدة فلطالما رأتهم يلعبون المطاردة وها هي اليوم جزء من اللعبة، ركضت بسرعة حتى أمسكت أحدهم قبل أن ينعطف عبر زقاق الجامع، وحين التفت ورآها تمسك به صرخ فرقا مما جعل أصدقاءه يرمونها

بالحصى، بينما أتت أمه ببدنها العريض، لحمها يهتز وهي تصيح بالفتاة لتبتعد عن ابنها ثم صفعتها صفعة كادت تتشقق لها عظمة وجنتها اليمنى البارزة.

وفي خضم هذا، كانت الصلاة قد انتهت وخرج الرجال من الجامع وبينهم زوج امرأة اللحم الذي جن حين رأى زوجته تقف في ذلك الزقاق الضيق بينما يمر بها الرجال يكادون يلمسونها من فرط سمنتها وضيق الطريق، فانطلق نحوها ليذيقها صفعتين ثم أرسلها مع ولدها إلى المنزل ليرمق بعدها حياة بشر قبل أن يعود أدراجه ويقصد المقهى حيث يمضي نهاره في لعب الورق والتهام خرطوم الأرجيلة.

ابتدأ شريط تعاستها بهذا اليوم وانتهى بهذه الرسالة التي قرأت فيها أن زهرة لم تعتن بها إلا لأنها تقاضت الثمن مقدما فقد كتبت أمها في وصيتها قبل موتها أن إرثها من والدها من أراض في العاصمة سيؤول إلى القابلة حالما تسلم شهادة حصول ابنتها على منحة الجامعة إلى المحامي وهكذا تضمن حياة كريمة لابنتها، فقد كان جد حياة لأمها على عكس أهله من القرويين رجلا متعلما، أمضى شبابه يكدح في المدينة ويتعلم في مكتباتها حتى جمع ثروة مادية وعقلية عاد بها إلى قريته ليحيا كحضري في البادية، فعاد إلى العاصمة بعدما غرس في ابنته شعلة الحضارة والعلم لما انبهرت به حين خالف العادات الجاهلية وترك لها إرثا ضخما أوصى محاميه بتسليمه لها، رغم أن ما جرت به العادة لدى القرويين أن المرأة لا تورث رغم أنه حقها شرعا وقانونا.

حين استيقظت حياة من هوتها كان جلد ذراعها قد احمر بالفعل ورغم أن أضافرها كانت مقلمة إلا أنها تركت خطا أحمر غائرا.

ساعة أخرى مرت بينما حياة تتنقل بين المواصلات حتى بلغت الرحاب الجامعي، لم تخف عليها نظرات الاشمئزاز التي لاحقتها من الطالبات وحتى من بعض مشرفي الجامعة الذين تواجدوا في هذا الوقت المبكر من العام للإشراف على تنظيم سير عام جديد من العمل.

كانت حياة قد اكتفت من البكاء لهذا اليوم فحاولت ألا تأبه لما استشعرته تجاهها من الجميع مذكرة نفسها بقوتها وبأنها تجاوزت سنوات تعليمها في ظروف أسوء من هذه، وأنه حتى لو كان الاستسلام متاحا فهو ليس متاحا عند العقبة الأخيرة حيث يمكن رؤية خط الوصول.

حصلت حياة على جدول المحاضرات ومفتاح غرفتها التي وافقت أن تكون الغرفة الأسوأ في الجامعة شرط أن تمكث فيها وحدها، فلم تكن مستعدة لمشاركة السكن مع أحد ،فقد اكتفت من الألم الذي يسببه البشر.

بلغت غرفتها التي كانت في آخر الرواق قرب الحمامات، حين دخلتها علمت لم وافقوا على طلبها بعدم حصولها على شريكة سكن، فلا أحد أصلا سيرضى بالبقاء في هكذا غرفة، كانت الغرفة ذات دهان سيء نصل لونه، تحتوي على سرير حديدي يفتقر إلى الراحة والرفاهية كحال أسرة مستشفيات الوطن العربي، أيضا يوجد مكتب صغير

وكرسي بثلاثة أقدام بينما عوض لوح خشبي القدم الرابعة، كما كانت هناك خزانة برفين دون باب.

أكملت حياة نقل ملابسها إلى الخزانة المهترئة ثم نقلت اللحاف ونامت على الأرض جراء صوت مفاصل السرير الذي يتصاعد كلما تقلبت في نومها، يذكرها صوت الصرير بصوت حارس مدرستها العجوز المصاب بداء المفاصل حين يحاول القيام من مكانه ليطردها بعيدا عن الباب.

إضافة إلى أن هناك قطرات من الماء تتسرب من السطح و تسقط على أرنبة أنفها لتنحدر إلى فتحتيه الواسعتين، كأنما حتى هي تسخر منها وتقول "أنف هذا أم حوض؟"

أثناء شعورها بالبرد المتصاعد من الأرضية وهو يصيبها برعشة أثلجت أطرافها، ورغم برودة جسدها كان عقلها لا يزال دافئا وهو يعمل من أجلها.

كانت تفكر بينما قطرات من الدموع تنحدر من عينيها وتبلغ موضع نومها من المخدة مضفية برودة على برودة.

ساعة مرت وهي على حالها، كان جفناها قد احمرا وتيبست أطرافها من قساوة الأرضية التي لم يحجب اللحاف سوى جزء منها، قامت من مكانها ذاك واختارت مواصلة البكاء جالسة على المكتب والكرسي العجيب، وهناك على المكتب لمحت دفترها الرمادي، ذلك الذي كتبت فيه كلما أحست بأنها انطفأت فتأتي إلى الكتابة حيث تطرح على الأوراق جزء من همومها فتتقد جذوتها من جديد، لقد اختارت لون

الدفتر رماديا ليذكرها دائما بأن عينيها جميلتين وأنها ليست بذلك القبح، ولكن الإنسان ظاهري الرؤية مهمل للدواخل، هو بصير، لكنه أعمى البصيرة، ورغم ما حققه من ثروة تطويرية في نفسه وفي من حوله إلا أنه لا يزال يملك هذه الخصلة التي تبين أنه ولو انطبقت السماء على الأرض فسيبقى الإنسان أقرب عبودية إلى شهواته دون عقله.

سحبت الدفتر، ثم كتبت هذه الكلمات وختمتها بجملة قالت فيها

-لا شك في أن الإنسان هو إنسان منذ خلقه الله والسماوات والأرض ولم يكن قردا يوما ولكنه يحاول أن يثبت للعالم أنه مجرد قرد ذي طفرة عقلية.

كادت تتوقف عن الكتابة بعد أن شعرت بأنها انتقمت من الإنسان، لكن القلم بدا أنه لا يريد ترك يدها، كان بطريقة غامضة يدعوها لتفكر في ما تحسن التفكير فيه دائما، يدفعها لتعترف بمن هي؟

قلبت الصفحة وكتبت

"لطالما عرضت بالإنسان ونظرته للحياة، ولكنني إنسانة ولا شك، صحيح أن نظرتي للحياة أكثر وعيا من بقية الإنس، لكن ربما يعود السبب إلى أنني حين أنظر في المرآة لا أرى شيئا جيدا، وكي لا أقتل نفسي بعد النظر إلى المرآة فإن علي إغماض عيني بصري وفتح عيني بصيرتي، حينها أرى في المنام شيئا جيدا، روح بيضاء، وقدرات دفينة، لكنني أرى أيضا تلك الروح البيضاء تتآكل كل يوم، يأكل بعضها بعضا، إنها تشعر بالجوع، إنني إنسية ولا شك وأحتاج ما يحتاجه البشر من مشاعر مقدمة لأرمم

نفسي، ولكني للأسف لا يمكنني الحصول عليها، إنني أمقت ذلك في، إنني أنطفئ كل يوم، قلت أن القلم يشعل جذوتي لكنني كذبت، إنه فقط يجعل انطفائي أبطأ، لكنه سيأتي ذات يوم، أشعر أن هذا اليوم قريب.

أيام قليلة وبدأت الجامعة، مر الشهر الأول على خير، دفنت حياة نفسها كعادتها داخل كتبها ودفاترها، فقد استعاضت عن البشر بكتب هم من كتبوها، لكن الجيد أنهم كانوا يكذبون أثناء كتابتها حين يتحدثون عن المبادئ والأخلاق وينبذون المظاهر من جمال وجاه.

بعد أيام هادئة اعتادت فيها حياة على البقاء وحيدة وقلت حولها نظرات الاشمئزاز، حيث حتى صاحب الشر يضر به شره فيعجز عن المداومة عليه.

يوم كان في بدايته نمطيا ككل أيام الدراسة عامة، شعور بالملل وكلمات سخط على البرامج الغبية التي تجعلك تشعر أنك تحيا من أجل التعب واللاشيء.

نجد اليوم، نخوض غدا غمار اختبار يثبت جدك، وبعد غد تنسى ما جددت من أجله ثم تبدأ في الجد في أمر آخر، وهكذا تستمر الحياة في دورتك التعليمية حتى يوم التخرج. بعدها ستجتهد من أجل تحقيق الرفاهية كالزواج والحصول على منزل وامتلاك سيارة، ثم حين تقترب من القبر بعد أن تجمع كل هذا ستكتشف أن هذه لم تكن يوما رفاهية وأنك نسيت أن تعيش.

كانت المحاضرة الأولى قد انتهت ولا يزال نصف ساعة على بداية المحاضرة الثانية، فتح الباب على مصراعيه لتدلف سيارة فاخرة تجاوزت المرآب المخصص وتوقفت في مكان غير قانوني، ولكن منذ متى والقانون يسري على الجميع.

نزل من السيارة شخص أحمق، صفق الحمقى الآخرون لحضوره، كان ذلك معتز ابن أحد أكبر رجال الأعمال، كان ذلك عامه الثالث الذي يعيد فيه سنته الأولى، تمنع أموال والده إدارة الجامعة والمعيدين من رؤية أن هذا الشيطان الصغير لم ينجح إلا عبر الواسطة، ولو أنه أراد أن يتخرج سريعا لفعل، لكنه يعتبر الجامعة ملهى يصطاد فيه في الماء العكر.

المهم أن معتز كان حاضرا في المحاضرة الثانية تتعلق به العيون، بينما يضع إحدى ساقيه فوق أختها بوقاحة.

كان الفتى يبتسم بعنهجية ابتسامة جانبية بغيضة وهو يرى نظرات الإعجاب تلاحقه، حتى قطب جبينه فجأة، حين رأى إحدى الفتيات لم تلق له بالا، بل كانت تصب كل تركيزها على الكلمات التي تخرج من فم المعيد العجوز، فك ساقيه بغضب وأخذ يتحرك بتوتر حتى نهاية المحاضرة، وعند باب الخروج تجاوز الجمع حتى اقترب منها ثم حمحم بطريقة مبتذلة ليلفت انتباهها، طالعته حياة باستغراب خال من الإعجاب، مما جعل عروقه تنفر بغضب لكنه رسم ابتسامة خفيفة وهو يبادرها بالسلام ثم ينصرف.

تلك الليلة كانت بالنسبة لحياة الخط الفصل بين الملح والعذوبة كالبحر الأحمر أو هكذا ظنت، فقد فكرت هي أنها لم تأبه له حين دخل كونها لم تكن لها فرصة في التقرب إليه مع وجود هذا الكم من جميلات الجامعة، ورغم ذلك سعى هو لأن تراه، ثم حين بلغت هذا المبلغ من التفكير شعرت بروحها تنمو، وبأنها لأول مرة تنال غذاء.
في حين أنه في مكان آخر بعيد، كان هو يضحك منتشيا متوعدا لها بجحيم الله في أرضه، لم يكن من سبب لهذا الوعيد سوى أن فتاة من بين المئات تجاهلته، ليكتشف أنها الأقبح بين المئات، أجل إنه الجوع البشري، النرجسية الكاذبة الحقيرة.
في حين شعر هو بالنقص شعرت هي لأول مرة بالترميم لتبدأ القصة.
أسبوعان من هذا التاريخ، كل يوم كان معتز يحمحم فيها أمام باب الخروج ثم يلقي السلام ويغيب مسرعا، وكانت حياة تتظاهر باللامبالاة بينما تمضي ليلتها حالمة بالسلام والابتسامة.
صدقا أن البشر حمقى، من المؤسف أن لكل بشري قلبا وعقلا، تشعر أن أحدهما يمحوا دور الآخر، ومن المؤسف أن القلب ينتصر دائما ظاهريا، لكنه يدفع الثمن في النهاية، في المحاكم يتم البت في القضايا بتدخل أدلة عقلية ظاهرة، أما في محاكم النفس، يقدم العقل تفسيرا، تبريرا، وتفصيلا، بينما يأتي القلب الذي أمضى ليله يبكي بينما يفكر العقل، ثم يطرح أمامك إحساسا عظيما لكنه تافه الحجة، رغم ذلك يدحر العقل، ليعود بعد زمن طال أو قصر لعيادة القلب المصاب بطلقات قاتلة سددها إليه المتهم الذي أدانته الدلائل وعفت عنه المشاعر.

مطلع الأسبوع الثالث، لم يكن من حلم هذه الليلة، فقد غاب الفارس عن فتاته، بقيت حياة تتقلب في مضجعها وقد هجرها نوم وزارها سهاد، قامت من مكانها لتكتب، لم تجد مذكراتها الرمادية، اكتشفت أنها لم تكتب منذ أسبوعين، بحثت عنها حتى وجدتها وعلى سطحها استقرت فضلات فأر، نفضتها بلهفة ثم أمسكت قلمها، لكن في هذه اللحظة بدا أنها فقدت ملكتها، عقلها خاو إلا منه، وقلمها لا حرارة بداخله، راودها شعور كما لو أن قلمها مات، لم تلمه فقد خانته، عادت إلى ما كتبت سابقا، سخرت من نفسها، ثم شطبت جملتها "أشعر أن هذا اليوم قريب" وفي نهاية الصفحة الأخرى كتبت، وداعا دفتري الرمادي كعيني فقد وجدت فارسي، ولم يعد لي بأوراقك حاجة.

هكذا هو الإنسان يعشق الأمل الزائف، ويبحث عن الخيبات، ألا تبا للقلوب فكم أعيت.

في مكان ما، كان فارسها إن صح التعبير، فالفارس يملك حصانا لا بقرة، كان معتز يحتسي الخمرة مع والده بينما يفكر في أمرها، وكزه والده بعنف وأمره بأن يركز مع كلامه وأخذ يخبره بأنه قد صار خطرا دمغ الصفقات المشبوهة بتوقيعاتهما، حينها افتر ثغر معتز عن أسنان سنجابية بابتسامة شر وهو يطلب من والده أن يطمئن.

ربت الوالد السيئ على كتف الابن الأسوأ وانسحبا في الظلام كشياطين قذرة، تاركين كؤوس النبيذ الأحمر شاهدة على الاغتيال.

يومان آخران مرا على غياب معتز عن الجامعة، في تلك الليلة فكرت حياة جديا بأن تعود إلى دفترها، حين سمعت خطوات قادمة، لم تأبه لها فقد ظنتها إحدى الفتيات

ذاهبة إلى الحمام، كادت تقوم إلى دفترها خجلى منه بعد أن ودعته ، حين رأت أمام فتحة الباب ظرفا باللون الرمادي، حينها غيرت وجهتها، أمسكت الظرف برعشة، ثم فتحته وقرأت:

من المريد إليك فإني قد أدمنت عينيك، و إني ما غبت إلا لخطب ألم ومصاب حل، فإن كان لك من مريدك من مأرب، فأطفئي ناره غدا من رؤياك ففي رماد عينيك هو احترق ثم منه من جديد ولد.

في الغد و على المكتب،حيث كان يستقر الدفتر،كان الظرف الرمادي هناك،ولاأحد يعلم أين ذهب دفتر الحقيقة و الذكريات.

لأول مرة دققت حياة في ملابسها، حتى أنها وضعت على عينيها كحلا رخيصا وجدته في حقيبتها.

انتهت آخر المحاضرات الصباحية، لم يكن معتز هناك حيث يجب أن يكون بعد رسالته، لوت فمها بخيبة وانتابتها رغبة بالبكاء، حينها اقتربت منها فتاة جميلة كدمية، نظرت لها بسخرية غير مبررة وهي تمدها بورقة صغيرة، فكت حياة طياتها، و سرعان ما ابتسمت.

ولأول مرة منذ مجيئها غادرت الجامعة.

على الرصيف المقابل، كان معتز يتكئ على سيارته الرياضية الفاخرة، ابتسم حالما رآها، حاولت النظر إلى عينيه لتكتشف صدقه لكنه لم يقع في فخها فقد حمته نظارته الداكنة.

صافحها برقة وهو يفتح لها الباب ،قاد بعدها السيارة إلى مطعم فاخر، انتظرا قدوم الطعام الذي لم يتأخر كما يليق بهذا النوع من الأمكنة.

من المؤسف أن الطعام كان سيئا رغم فخامة المكان، كان هذا مثالا مطابقا لكلمات معتز إلى حياة.

حدثها عنه وعن حياته وحدثها عنها وعن حياتها التي نبشها ليتأكد من صلاحيتها لما أعدها للقيام به ، أيضا ليعلمها بأنه يهتم بها، حتى حين سألته عن سبب اختيارها دون غيرها أقنعها بفلسفتي عن الجمال والجاذبية كما أخبرها بأن كيمياءها هي الوحيدة التي استطاعت أن تجذب انتباهه لها دون غيرها.

مر شهر كانت حياة قد صارت فيه مثل غيرها، ران أثقل بصيرتها، وتخمة كاذبة أصابها بها فارسها الذي كان في تلك اللحظة يعد العدة لأمر جلل.

في الغد التقيا في مطعمهما المفضل، غازلها هو وابتسمت هي، وضع أمامها بضع أوراق وطلب منها توقيعها، أوجست خيفة منه، راقبته يتردد وهو يقوم من مكانه يضع يده على كتفها ثم يخبرها بأنه لا بأس إن لم توقع، فلم يرد بفعله ذاك إلا خيرا، أخبرها أنه بصفتها زوجته المستقبلية، أراد توقيعها أن يزين صفقات الشركة جلبا للحظ الطيب.

أنهى كلامه ثم جمع الأوراق وأعادها إلى الحقيبة الصغيرة، وواصل حديثه كأن شيئا لم يكن، وقبل أن يغادرا طلبت منه بحياء أن يمدها بالأوراق لتوقعها، فابتسم الذئب. وفي مكان آخر تشقق كأس النبيذ الأحمر.

أيام أخرى مرت، صفقات أخرى وقعت، أتى يوم أخبر فيه معتز حياة بسفره واعتذر عن القدوم إليها.

في ذلك اليوم كان لدى حياة اختبار في الغد، فغادرت الجامعة إلى مكانها المريح الوحيد حيث اعتادت البقاء مع معتز، دخلت إلى المطعم واتجهت إلى حيث اعتادت الجلوس في مكان منزو ومظلم حيث لا تضطر لتحمل نظرات الاشمئزاز والمقارنة بينها وبين جليسها.

طلبت قهوتها السوداء التي بدأت تشربها مع سكر مؤخرا ثم أخذت في المراجعة، ساعة مرت حتى سمعت جلبة فتوقفت عن القراءة ونظرت إلى مصدرها فرأت معتز وهو يدخل، استغربت من قدومه ولكنها ابتسمت ، صدمت حين رأته لم ينظر ناحيتها بينما اتجه إلى طاولة أخرى تطل على الشارع حيث يجلس كهل وفتاة جميلة عرفت فيها الدمية من ذلك اليوم، قبل كليهما على الخد ثم فتح علبة بها خاتم ألبسه للفتاة، حدث كل هذا بينما حياة تراقب، كتمت آهة ودمعة ثم اتصلت به، رأته ينظر في هاتفه ثم ينفخ بسأم قبل أن يرغم نفسه على الابتسام وهو يجيبها ليخبرها بأنه لا يزال على سفر وأنه في خضم اجتماع مهم.

و في مكان آخر، بدأ النبيذ الأحمر يتسرب من الكأس.

في تلك الليلة، أحدهم لم يتمكن من النوم، بقي عقلها يعمل خلال الليل باحثا عن السبب، لطالما علمت السبب لكنها لطالما أعمت نفسها عنه.

أخبرت سابقا في أحد كتبي أنه دائما كان للإنسان خيار ودائما أساء الاختيار.

في اليوم الموالي التقى معتز بحياة، منحها زجاجة عطر كاعتذار ومنحته ابتسامة صفراء.

جلس الاثنان في مكانهما المعتم، طلبت قهوتها لكن دون سكر هذه المرة، فقد أرادت أن تستعيد الطعم القديم.

أحاديث وثرثرة من جانب معتز أجبرت نفسها على تحملها بل والابتسام لها، أخيرا حانت اللحظة التي انتظرتها، سحب من حقيبته الملفات ومنحها إياها لتذيلها بتوقيعها.

ومن حسن حظها تركها مع الملفات وخرج ليجري مكالمة هاتفية، قرأت الملف الأول وكان عن صفقة استيراد لآلات فلاحية، لكن الثاني والثالث كانا صفقات مشبوهة من خمور ومخدرات، بل وفهمت أيضا بعض الإيحاءات عن أسلحة، بتبلد شديد وقعت على الملف الأول ثم بدلت توقيعها على الملفين الآخرين وسوتهما بحيث لا تظهر التواقيع.

انتظرت قدوم معتز، منحته أمانته و أخبرته بأنها متعبة ومجبرة على المغادرة، ابتسم ابتسامته المقرفة ثم أوصلها إلى باب الجامعة.

دخلت غرفتها بحالة مضطربة بين التلبد والحزن، بين الخواء والنقمة، جلست على عارضة الفراش الحديدية، بقيت على حالها ساعات، لم تأبه للقطرات التي تسقط على رأسها رتيبة بإيقاع حزين، كأنما تنعي أيامها السعيدة.

في لحظة ما، رفعت رأسها إلى السماء ثم قامت من مكانها، حملت حقيبتها من فوق الخزانة عديمة الباب، فتحتها لتخرج زجاجة العطر التي حصلت عليها اليوم، وبغضب أخذت تلقيها على الأرض بقوة حتى جعلتها حطاما، حملت قطعة من الزجاج، قربتها من معصم يدها، تمنت داخلها أن تفشل صفقات معتز بسبب التوقيع المزور، ثم مررت القطعة وسالت الدماء.

وفي مكان آخر، تهشم الكأس وفاض النبيذ الأحمر غزيرا.

قطرة تليها قطرة، نزيف بطيء من شريانها تراقبه حياة بنزيف أكبر من روحها، أخذت تحدق بظلام بخط الدماء القاني دون أن يرمش جفناها وقد غطى السائل اللزج معصمها وثيابها، فقدت الكثير من الدماء فظهر ذلك على ملامحها التي لونتها الصفرة وانتابها دوار فظيع، ومن بعيد التقطت أذناها صوتا مبهما لم تدر مصدره بدأ يرتفع شيئا فشيئا حتى تبينت ماهيته، فبتدبير إلهي محكم انطلق صوت أذان الفجر ليصل إلى مسمعها بعمق كأنه آت من قاع سحيق، انتشلها الصوت الشجي بكلماته الربانية من هوتها، اتسعت عيناها تنظر لدمائها برعب كأنها أفاقت للتو من غفلة كادت تهلكها، انتفضت من مجلسها وأسرعت إلى فستانها تمزق ذيله لتضمد به جرحها محاولة إيقاف دمائها ريثما تتصل بالمستشفى القريب.

***

بعد أربعين عاما

كانت شابة جميلة تترجل من سيارة فاخرة أمام إحدى العمارات، بعد أن فتح لها شاب بابها، تقدم الاثنان من الباب قبل أن تستوقفهما عجوز بعينين رماديتين، ورغم ملامحها المعمرة التي خلت من الجمال إلا أنها كانت تمتلك هالة مريحة آسرة.

تأفف الشاب وأدخل يده في جيبه ليخرج بعض النقود وقدمها للعجوز التي نظرت له بلوم وأخبرته بأنها أرادت التحدث مع الفتاة فقط وأنها لا تحتاج ماله، انزعج الفتى ولكنه أراد أن يظهر بمظهر متحضر فابتسم في وجهيهما ثم اعتذر بهدوء بعد أن أخبر الفتاة بأنه سينتظرها في الداخل.

على كرسي حجري وضعت الفتاة ركبتيها إلى ركبتي العجوز وأخذت تسمع منها روايتها، كانت الدموع قد بدأت تنهمر على خدها حين بلغت العجوز الجزء الذي حاولت فيه الانتحار وأخبرتها بعدها أنها لتشكر الله، فقد تركت العمل بعد التخرج ،وتفرغت لرعاية إحدى دور الأيتام حيث تعلمهم القراءة والكتابة وتحاول تعويضهم عن المعانات الذي قاسوها رغم طفولتهم حتى لا يكونوا يوما حياة أخرى.

في جزء دفنته داخلها كانت الفتاة تؤنب نفسها على قرارها المتهور بالقدوم مع رفيقها، وحين سمعت كلام المرأة، طفا ذلك الجزء الدفين وجعلها تقرر العودة من حيث أتت، وقبل أن تغادر سألت العجوز عن اسم قاتلها، فأخبرتها بأنه معتز الصاوي صاحب مجموعة الوطن العربي للآلات الفلاحية.

في الغد، كانت الفتاة تنتظر اتصالا من رفيقها سليم ليؤنبها على مغادرتها دون أن تخبره وأثناء تصفحها للهاتف قرأت عن اندلاع حريق بإحدى الشقق المشبوهة وراح ضحية الحادث سليم الصاوي وريث مجموعة الوطن العربي للآلات الفلاحية وبعض الشباب الذين أثبت الطب الشرعي تعاطيهم لمواد مخدرة.

انتحبت الفتاة وبكت حالما قرأت الخبر، بكت فرحا لنجاتها و انتحبت فرقا لوفاة من كان حتى الأمس عزيزا.

في صباح اليوم التالي كانت تلبس ثيابها على عجل وتذهب إلى حيث قابلت العجوز منذ يومين، حين وصلت كان المقعد خاليا، اقتربت من دكان قريب وسألته إن كان يعرف متى ستعود حياة مرة أخرى، حينها أخبرها بأن المرأة الطيبة قد وجدت منذ يومين جالسة على المقعد الحجري وقد فارقت الحياة وعلى ثغرها ابتسامة رضا.

بعد ساعات، كانت أمل، الفتاة من هذه الأيام ،تجلس على الأرض بجانب القبر تداعب شاهده بينما تقول:

"لقد أديت رسالتك التي أبقاك الله من أجلها ذلك اليوم، الحب بقلب دون عقل هو حب يبلى كما يبلى الثوب، لقد صدقت حين قلت أوهن البيوت حب غير مشروط".

أنهت أمل كلماتها ثم حملت حجرا مدببا ونقشت على الشاهد.

"أنت حياة أنقذت حياة."

تمت بحمد الله.